الثقافة الإسلامية
بين الأصالة والمعاصرة

بقلم : د. عبد المنعم جابر أبو قاموق

إن المتتبع لجوانب الثقافة الإسلامية سواء في مجال العلوم الدينية أو العلوم اللغوية أو العلوم العقلية ، يستطيع أن يدرك أنها تمتاز بشخصية متميزة من حيث مصادرها وخصائصها ، ومقوماتها وأهدافها ، فهذا التميز للثقافة الإسلامية أعطاها عمقاً حضارياً أصيلاً ، وطابعاً إنسانياً معتدلاً ونظرةً للوجود شاملة وكاملة .

فهي تستمد مبادئها وأحكامها وقواعدها من أصل رباني موحى به ، المتمثل في النصوص القرآنية والسنية ، حيث أن جميع مصادر الثقافة الأخرى ، راجع إليهما أو منبثق عنهما ولا يجوز أن يخرج عنهما فهي أصل وما عداها فرع.

إن الأصل الرباني للثقافة الإسلامية طبعها بطابع مميز عن باقي الثقافات الأخرى والتي مصدرها تفكير البشر وتصوراتها ، وهذا يعني أنها تقوم على أهواء الناس وميولهم وغرائزهم وطبائعهم،وتصوراتهم،وهذا أمر محدود ، أما الثقافة الإسلامية ، فلا مجال فيها لأهواء الناس وميولهم وطبائعهم وتصوراتهم ، بل تستمد قيمها ومبادئها وتصوراتها وقواعدها من القرآن الكريم والسنة الموحى بهما من عند الله سبحانه وتعالى، وما هو صادر عن تفكير الناس لا يجوز أن يخرج عن نصوصهما .

إن صفة الربانية هذه أكسبت الثقافة الإسلامية سائر الصفات والخصائص التي تمتاز بها عن جميع الثقافات الأجنبية...

وقد يقال إن كثيراً من الثقافات الأجنبية ذات طابع إلهي ، وهذا يفقد الثقافة الإسلامية انفرادها بهذه الخصيصة .

نقول إن كثيرا من الثقافات الأجنبية ذات مصدر إلهي في ظاهر الأمر ، لكن

لو نظرنا إلى حقيقة الأمر فإننا نجدها قد فقدت هذه الصفة ، حيث أن تلك الثقافات ترجع إلى ديانات[1] أضيفت إلى كتبها الأصلية تصورات وتأملات بعدت بها عن مصدرها الحقيقي لتجاري بذلك الظروف الزمانية التي مرت بها ، والتطورات الإجتماعية التي فرضت سلطانها عليها مما جعل الأوروبي الحديث يناصب الفكرة العداء ويبعدها عن طريقه ويبتدع لنفسه مذاهب وعقائد يناهض بها الأسس التي يقوم عليها الفكر الديني .

أما الثقافة الإسلامية فقد بقيت محافظة على مصدرها الأصلي ، ولم يضف إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أي تصورات أو تأولات ، لأنه لا سلطان لبشر في تفسير وتبديل نصوص القرآن والسنة ، بل أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، عن طريق الوحي جبريل عليه السلام ، وقد انقطع نزول الوحي بوفاة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، وقد تكفل [2] الله بحفظهما حيث قال سبحانه وتعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ، حيث أن القرآن والسنة هما الذكر المنزل .

وتكتسب الثقافة الإسلامية صفة الثبات من ثبات نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية التي لا تقبل النسخ أو التغيير، فمفاهيم الثقافة الإسلامية ثابتة لا تتغير قواعدها الرئيسية ، ولا تتبدل معالمها الأساسية بتبدل الظروف والأحوال والأهواء .

وصفة الثبات هذه لا تعني الجمود والتحجر ، وإنما تعني ثبات المفاهيم والقواعد الرئيسية للثقافة الإسلامية ، فالفضيلة لا يمكن في يوم من الأيام أن تصبح رذيلة ، فالصدق فضيلة إلى قيام الساعة ، والزنا رذيلة ما دامت السموات والأرض ، ولا يمكن أن يصبح الصدق يوما رذيلة ، والزنا فضيلة . والإنسان في

١. خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب ص ١٤ .

٢. الإحكام في أصول الأحكام- ابن حزم جـ ١ الصفحات ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩ .

حاجة إلى الطيبات وتضره الخبائث ، فلا يمكن أن يكون في حاجة إلى الخبائث، وفي غنى عن الطيبات ...أما صفة الشمول ، فتعني أن الثقافة الإسلامية تشمل كل الجوانب اللازمة لحياة الإنسان ، حيث نظر إليه الإسلام على أنه روح وجسد وعقل ولا تستقيم حياة وسعادة الإنسان إلا باستكمال هذه الجوانب معا ، ولكل جانب من هذه الجوانب متطلبات راعى الإسلام توافرها في الإنسان .

فمن الناحية الروحية طالب كل شخص بالإيمان بوجود الله واتصافه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص ، وإفراد المولى بالعبادة والدعاء والإستعانة ، حتى يشعر الإنسان بعزة نفسه ويأبى العبودية لغير الله «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وطلب الإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وغذى هذا الإيمان بالعبادات : «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا». والزكاة تغرس في قلبه عاطفة الرحمة والعطف على الضعفاء والفقراء وذوي الحاجات ، والحج ينمي رغبة التعرف بالمسلمين من كافة الأقطار ... والصيام يعلمه الصبر على المكاره والشدائد .

ومن الناحية المادية: فقد طالب الإسلام بحفظ النفس والمال والعرض والعقل والنسل .

فحفظ النفس بوقايتها من الأمراض وعلاجها منها كلما استدعى الأمر ذلك ، وبالدفاع عنها ضد أي معتد ، ومن شدة عناية الإسلام بالصحة قدمها على العبادات فأباح الفطر في رمضان للمريض، والتيمم لمن خاف ضرراً من استعمال الماء .

وأما المال فقد حفظ الإسلام البشرية من الفوضى والطغيان بوضع نظام للأموال من شأنه أن يجعل الناس في مأمن من شر طغيان المال فقد حرم الربا وأحل البيع والقرض والقراض وحفظ البشرية من شر التبذير والتقتير مع إباحته الطيبات في المأكل والمشرب والملبس والمسكن من غير إفراط ولا تفريط وشرع الحدود والتعزيزات لمن اعتدى على مال غيره بسرقة أو نهب أو اختلاس.

وأما حفظ العقل ، فقد حرم الإسلام كل ما يضر به ، من شرب الخمور والمسكرات

وتبني أفكار الكفر والإلحاد والحجر على العقل البشري والحيلولة دون حريته في التفكير والتعبير عن التفكير ...

وأما العرض فقد أمر الإسلام بحفظه والمحافظة عليه ، لأنه عنوان الشرف والكرامة ، وفي المحافظة عليه محافظة على نظام الأسرة والإنسان من لهو الشباب وزلة الشيوخ ، لذلك شرع عقوبة الزاني .

وأما حفظ النسل ، فقد نظم الإسلام العلاقة الزوجية وأباح الزواج وجعله أساساً من الأسس الصحيحة لحفظ النسل ورغب فيه .

كما اهتم الإسلام بعلاقة المسلمين بغيرهم وقت السلم والحرب ونظم تلك العلاقة على أساس المعاملة بالمثل ، وبما يحقق للمسلمين العزة والكرامة ، وللإسلام العلو في الأرض .

ونظم علاقة الحكام بالمحكومين ، وواجبات وحقوق كل منهم تجاه الآخر ، كما اهتم بالأخلاق التي هي معان ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، وهي الحصن المتين لمن أراد أن يكون تام الإسلام .

هذا الشمول في جميع جوانب الحياة لم يأت لوقت دون وقت ، أو لعصر دون عصر ، أو لزمن دون زمن ، وإنما جاء لكل وقت ولكل عصر ولكل زمن ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما صفة التوازن: فالإسلام عندما راعى في أحكامه شمول كل جوانب الحياة البشرية ، من روحية ومادية وعقلية ، لم يقم جانبا على حساب جانب آخر ، ولم يهتم بالناحية الروحية دون المادية ، أو المادية دون الروحية ، أو العقلية ، وإنما أقام توازنا بين متطلبات الجسد والروح والعقل وأعطى كلاً حظه وحقه بحيث لا يطغى جانب على حساب آخر ، ولهذا يستقيم أمر المسلم في كل حركة من حركاته ، وكل تصرف من تصرفاته ، ويستقيم أمر التشريع الإسلامي فيخلو من التناقض ، وليس كما هو الحال في حياة غير المسلمين وتشريعاتهم الوضعية التي أفرزتها أهواء وشهوات ورغبات فلاسفتهم ومفكريهم ...

وتمتاز الثقافة الإسلامية عن سائر الثقافات الأخرى بأنها إنسانية النزعة والهدف ، وتظهر هذه الخصيصة من خلال أحكام ومبادئ الإسلام التي تحض على

توفير المبادئ الإنسانية في مجال العلاقة بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، على الصعيد الفردي أو الصعيد الدولي .

وتسيطر هذه النزعة الإنسانية على جميع جوانب الفكر الإسلامي من حيث إقامة العدالة في مجال الحكم والقضاء ، وتوفير الحرية في مجال الكتابة والتعبير، وتحقيق المساواة بين المسلمين جميعاً بغض النظر عن الإعتبارات الزمنية كالجنس واللون والمال والعشيرة واللغة ، قال تعالى مؤكداً على الوحدة الإنسانية التي تجمع الناس جميعاً:

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [٣].

ولهذا لا نجد في أحكام ومبادئ الإسلام ما يدعو إلى التعصب الديني أو القومي أو المظهري ، وإنما نجد دعوة ملحة للسمو بالنفس البشرية عن جميع القيم البشرية المتعارفة [٤].

إن قيم النفس والأهل والقوم والعشيرة والبلد والوطن والأمة والإنسانية والأبطال القوميين والإنسانيين ، لا [٥] تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على كر العصور ومر الأجيال ، ويلتف البشر حولها أبد الدهر ، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه البشرية باستمرار ، إن الله وحده في رأي الإسلام هو الغاية المثلى والقيمة الخالدة والهدف الأسمى الذي يمكن أن تلتقي في رحابه الإنسانية أفراداً وجماعات تستقي منه الخير والعدل والقوة .

كما أن الثقافة الإسلامية واقعية مثالية، فقد جاءت أحكام ومبادئ الإسلام رحمة للناس ، قال الله سبحانه وتعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» [٦]. ولا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، إلا إذا كان التشريع الذي جاء به يحقق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، ومن الرحمة أن تكون مبادئ الإسلام وأحكامه ممكنة التطبيق في الحياة البشرية ، بالشكل الذي يتناسب مع

٣. سورة الحجرات آية ١٣ .

٤. مبادئ الثقافة الإسلامية، د. محمد فاروق النبهان، ص ٨٩ .

٥. معالم الثقافة الإسلامية، د. عبد الكريم عثمان ص٨٩.

٦. سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

واقع الإنسان ، وقد جاء منهج الإسلام في التشريع منهجاً واقعيا ، إذ جاء ملائماً في كافة فروعه لطبيعة الإنسان ولطبيعة الحياة ولمصلحة الفرد ولمصلحة الجماعة ، مرتبطاً بالواقع لا يحيد عنه ، ولا يرتفع عليه . إلا أن الإسلام لا يريد أن تكون تعاليمه مؤكدة للواقع المنحرف، وإنما تسمو بهذا الواقع إلى وضعه الصحيح الذي تستطيع البشرية بحكم طاقاتها وإمكاناتها أن تصعد إليه .

حتى في مجال العقيدة فإن الإسلام لا يقود الإنسان إلى متاهات الغيب ، ويتركه يتخبط فيها خبط عشواء ، وإنما يقوده بهوادة ويسر مستعيناً بعقله وإدراكه ، ليأخذه إلى الحقيقة الإلهية عن طريق الإدراك الحسي لآثار هذه الحقيقة في النفس الإنسانية ، وفي الكون المرئي، وفي المخلوقات الحية وفي الشمس والقمر والليل والنهار والأرض والسماء ، وهكذا يتابع العقل البشري هذه الآثار التي يراها مجسمة أمامه ليصل عن طريقها إلى الحقيقة الإلهية الأزلية [٧].

كما أن الثقافة الإسلامية إيجابية فاعلة، فمبادئ الإسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة ، وإنما هي في صميمها قوة بناءة وحركة دافعة إلى النمو المطرد ، وانطلاقه إلى الحركة وتحديد الذات في هذه الحركة ولكن في أسلوب نظيف ، إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في الثقافة الإسلامية ، على عكس التبطل والسلبية فإنها صورة غير أخلاقية ، لأنها تنافي غاية الوجود الإنساني كما يصورها الإسلام ، وهي الخلافة في الأرض ، واستخدام ما يسخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها في التعمير والبناء [٨].

والمؤمن عليه أن يؤدي واجبه دون أن ينتظر جزاء أو شكوراً ، ولا يربط عمله بالنجاح ، أو يعلقه على الإستجابة ، فهذه أمور أمرها إلى الله سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول الله لرسوله الكريم «ليس عليك هداهم ، ولكن الله

٧. مبادئ الثقافة الإسلامية ، د. محمد فاروق النبهان ص ١٨.

٨. معالم الثقافة الإسلامية، د. عبد الكريم عثمان ص ٩٠ .

يهدي من يشاء» [٩].

وجاء منهج الثقافة الإسلامية منهج هداية ونور ، لتصحيح عقيدة البشر ، وتهذيب نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح مجتمعهم ، وتنظيم علاقاتهم ، وإشاعة الخير فيما بينهم ، ومطاردة الشر والفساد في بيئاتهم ، وقطع ذابر الفرقة والتناحر بين صفوفهم . قال الله تعالى « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » [١٠].

ونجد الدعوة الدائمة الملحة إلى الأخلاق الكريمة دستوراً في الفكر الإسلامي ، من وفاء وأمانة وعدل ورحمة ، وبر وإحسان ووفاء بالوعد ، وصيانة للعهد ، كما نجد التحذير الدائم من الصفات السيئة كالغدر والخداع ، والظلم والإعتداء ، والغش والإلتواء وغير ذلك من الصفات التي تأباها الطباع الكريمة ، والنفوس الكريمة أمرا أساسيا لا يخلو منه جانب من جوانب الثقافة الإسلامية ، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة والتحذير من الأخلاق الفاسدة لا يقف عند حد الترغيب والتوجيه والتحذير بل يتجاوز ذلك إلى التقيد والإلتزام في التشريع والأحكام ، لتكون المسؤولية الفردية والجماعية أساس الحماية والتطبيق لهذا الجانب الأخلاقي في حياة الأفراد والجماعات ، وليكوّن الروح الحية الفعالة في أعماق ضمائر المؤمنين ، والمحور الذي ينتظم سلوكهم في حياتهم الخاصة وواقعهم الإجتماعي .

فالثقافة الإسلامية أخلاقية في دعوتها ..

ولما كان الإسلام كلاً لا يتجزأ ، فإما أن يؤخذ جملة ، وإما أن يترك جملة ، فقد جاءت الثقافة الإسلامية كلاً لا يتجزأ .

لأنها وفق التصور الإسلامي الصحيح للحياة والكون والإنسان في مجال الأخلاق والسلوك والعقيدة والشريعة ..

وقد جمع الإسلام بين هذه الأمور الثلاثة لما بينها من ترابط وثيق .

فالترابط بين العقيدة والشريعة كترابط الثمار بالأشجار ، والمسببات بالأسباب ، والنتائج بالمقدمات ، لذلك لا يجوز الفصل بين العقيدة والشريعة في

---

٩. سورة البقرة آية ٢٧٢ .

١٠ سورة يونس آية ٥٧ .

أي جانب من جوانب الحياة ، فعقيدة بلا شريعة روح بلا جسد ، وشريعة بلا عقيدة جسد بلا روح .

والشريعة والعقيدة [11] من غير أخلاق شجرة بلا ثمر ، والأخلاق دون عقيدة وشريعة ظل لشبح غير مستقر .

والثقافة الإسلامية بأصالتها وبشخصيتها المتميزة من حيث مصادرها وخصائصها ومقوماتها وأهدافها ، جعلها قادرة على أن تؤثر في الثقافات الأخرى التي كانت قائمة ، ولا تتأثر ، حيث انتفعت الثقافة الإسلامية من تلك الثقافات ، دون أن يطمس ذلك شخصيتها المستقلة ، ويقضي على وجودها .

وقد استطاعت هذه الثقافة أن تستفيد من التراث الحضاري الذي خلفته الأمم الأخرى في المجالات العلمية ، حيث ترجمت كتب التراث الإغريقي والفارسي إلى اللغة العربية في عصر العباسيين ، ثم أضاف العلماء المسلمون الجديد من فكرهم وانتاجهم إلى هذا التراث الحضاري فصححوا كثيراً من الآراء حتى استطاعوا أن ينتزعوا من مؤرخي علماء الغرب اعترافاً بعظمة التراث الإسلامي وبتميز الحضارة الإسلامية وبدورها الكبير في الحضارة المعاصرة [12] ، ويقول جوستاف لوبون في كتابه «حضارة الغرب» [13]:

«... ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب (المسلمون) في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة ، فإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد يوم كانت المدنية الإسلامية في إسبانيا زاهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء يقضون الوقت بالتكسب في ديارهم بنسخ كتب العلماء، وليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة . وطال عهد الجهالة في أوروبا ،

---

١١. المختصر في نظام الإسلام- فرج السيد وزملاؤه ص ١٢.

١٢. مبادئ الثقافة الإسلامية، د. محمد فاروق النبهان ص ٦٥.

١٣. نقلا عن صفحات من أمجادنا، أنور الجندي ص١٣.

وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادي عشر، وبعبارة أصح في القرن الثاني عشر، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس ينوءون تحته طرقوا أبواب العرب (المسلمين) يستهدونهم ما يحتاجون إليه، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد، ولم يدخل العلم أوروبا في الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا ...» .

ويقرر المستشرق سبنسر فاميري فضل المسلمين فيقول [١٤]:

« لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربياً، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربياً، ولا يقدر أي قاض أن يبت اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء أي طبيب عربي، ولا يستطيع أي رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعمد إلى اللغة العربية، فإن انتشارها قد بلغ من الذيوع والسعة بحيث يؤكد البعض دون مبالغة أن خمس شعوب الكرة الأرضية يتكلمون اللغة العربية، وأن يؤكد أن أية لغة أخرى لا يتكلم بها شعوب بلغ اختلاف أجناسها وتباينها مبلغ المتكلمين باللغة العربية فإذا ذكرنا أن العرب طوال قرون ثمانية في الأندلس مستودع أعظم العلوم في ذلك الحين فإنه بوسعنا أن نعتقد أن مادة غير محدودة من التاريخ والعلوم والإجتماع والحقوق قد وصلتنا من تلك الأرض المقدسة» .

وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد استفادت من التراث الحضاري الذي خلفته الأمم الأخرى، فإنها طغت على ثقافات تلك الأمم، وقد تم ذلك دون إكراه أو إجبار فقد فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واليونان وغيرها، وكانت هذه البلاد مختلفة الثقافات، ونشروا

١٤. نقلا عن كتاب: الإسلام في غزو جديد للفكر الإنساني- أنور الجندي ص ١١١-٢١١ .

فيها رسالة السلام ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، فأصبحت عقيدتهم العقيدة الإسلاميةونظامحياتهمالشريعة الإسلامية ، وبالتالي أصبح فكرهم فكراً إسلامياً ولغتهم اللغة العربية فتخلوا عن حضارتهم وعن ثقافتهم .

ولكنهم رغم أنهم أخضعوا شعوباً كثيرة قبل الإسلام لسيطرتهم زمناً طويلاً إلا أن ثقافتهم لم تستطع أن تؤثر في عاداتوتقاليدوعقائدولغات تلك الشعوب ، بعكس الثقافة الإسلامية التي استفادت من تلك الثقافات وأثرت فيها تأثيراً تاماً بحيث أصبحت هي وحدها ثقافتهم .

والتأثر بالثقافة يعني [١٥]دراستها ، وأخذ الأفكار التي تحويها وإضافتها إلى أفكار الثقافة الأولى لوجود شبه بينهما أو لاستحسان هذه الأفكار .

والتأثر بالثقافة يؤدي إلى الإعتقاد بأفكارها ، فلو تأثر المسلمون بالثقافة الأجنبية في أول الفتح لنقلوا الفقه الروماني وترجموه وأضافوه إلى الفقه الإسلامي ، واعتبروه جزءاً من الإسلام ، ولكانوا جعلوا الفلسفة اليونانية جزءاً من عقائده ، ولكانوا اتجهوا في حياتهم اتجاه الفرس والرومان في جعل أمور الدولة مسيّرة بما يرونه مصلحة لهم ، ولو فعلوا ذلك لاتجه الإسلام من أول خروجه من الجزيرة العربية اتجاهاً مضطرباً ، ولاختلطت أفكاره اختلاطاً أفقده معناه .

والإستفادة أو الإنتفاع يعني دراسة الثقافة الإسلامية للثقافات الأخرى دراسة عميقة ومعرفة الفرق بين أفكارها وأفكار الثقافة الأجنبية وأخذ المعاني التي في هذه الثقافة والتشبيهات التي فيها لإخصاب الثقافة الإسلامية من الناحية الأدبية ، وتحسين الأداء بهذه المعاني وتلك التشبيهات دون أن يتطرق إلى أفكار الإسلام أي تناقض ، ودون أن يؤخذ من أفكارها الخاصة عن الحياة ، وعن التشريع ، وعن العقيدة أي فكر ، والاقتصار على الإنتفاع بالثقافة دون التأثر بها ، يجعل دراستها معلومات لا تؤثر على وجهة النظر في الحياة .

وانتفاع الثقافة الإسلامية واستفادتها من الثقافات الأخرى وعدم تأثرها بها أمر

١٥. الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى، سميح عاطف الزين ص ٣٦ .

أدهش المستشرقين مما جعلهم يقرون بذلك الإنتفاع .

يقول جوستاف لوبون [١٦]:

« ... ولقد كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي (احتلوها) عظيماً جداً في الحضارة ، إن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارها ، ولكن عناصر مدنية العرب وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية .

ولقد أظهر العرب استعدادا ذهنيا مكنهم من دراسة أمور العالم الذي كان جديداً على أعينهم بمثل ذلك الإستعداد الذي فتحوه به .

ولم يتقيد العرب في دراسة تلك الحضارة التي واجهتهم فجأة بمثل تلك التقاليد التي أثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل ، وقد كانت الحرية من أسباب تقدمهم السريع ، ولم يلبث أن تجلى استقلال العرب الفكري وخيالهم وقوة إبداعهم فيما ابتكروه ، ولم يمض وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون وعلى مباحثهم العلمية طابعهم الخاص » .

ويقول ديلاس أواسيري [١٧] في مقدمة كتابه (الفكر العربي ومكانه في التاريخ) :

« كيف أثر الفكر الإسلامي في الثقافة المسيحية في القرون الوسطى ، لقد حول الفلسفة المسيحية إلى مسالك جديدة وكاد يذيب اللاهوت التقليدي في الكنيسة وأدى مباشرة إلى النهضة التي كانت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى!! » .

وإذا كان المسلمون الأوائل قد انتفعوا بثقافات الأمم الأخرى ولم يتأثروا بها ، بل أثروا فيها ، وإذا كانت أوروبا درست في جامعتها ترجمات مؤلفات العلماء المسلمين ستة قرون وقطعت ما بين المنهج الغربي الذي اقتبسته عن المسلمين وما بين أصوله الإعتقادية والإسلامية ، ونسبت ذلك لعلمها وعلمائها .

فما هو موقف المسلمين المعاصرين من ثقافتهم الإسلامية ومن ثقافات الأمم الأخرى؟؟

لقد درس المسلمون بعد الغزو الثقافي الغربي ثقافات الأمم الغربية وتأثروا

١٦. نقلا عن كتاب: صفحات من أمجادنا، أنور الجندي ص ١٤

١٧. نقلا عن كتاب: صفحات من أمجادنا، أنور الجندي ص ١٤

بها ، حيث اعتنقها بعضهم وتخلى عن ثقافته الإسلامية والبعض الآخر استحسنها وأضاف ما فيها من مفاهيم إلى الثقافة الإسلامية ، وصبغ المفاهيم بصبغة إسلامية رغم تناقضها الصريح مع الفكر الإسلامي .

فمثلاً يدعي البعض أن قاعدة (الأمة مصدر السلطات) و (السيادة للأمة) قاعدة إسلامية ، سبق الإسلام الغرب في الأخذ بها ، والحق أن هذه القاعدة هي[١٨] نظرية فرنسية الأصل استنبطها الفقهاء الفرنسيون القدماء لظروف تاريخية خاصة بفرنسا ، وكان هدفهم من استنباطها تخليص ملوك فرنسا من نير سلطان ومحاولات الأباطرة والبابوات والحكام الإقطاعيين وبسط سيطرتهم على أولئك ومشاركتهم في قسط من سلطانهم، ولما جاءت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر أدخلت على نظرية السيادة ما أدخلت من تغيير اقتضته ظروف تلك الثورة وأهدافها فنقلت ملكية السيادة من الملوك إلى الشعوب .

ولما كان التشريع الإسلامي تشريعا إلهيا والنظام[١٩] السياسي في الدولة ديني مصدره القرآن والسنة ، والحاكم والمحكوم في هذه الدولة واجب عليهم الخضوع لذلك التشريع الإلهي والحاكم هو نائب عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا ويمارس اختصاصات محدودة لا يستطيع الخروج عليها وإن فعل ذلك عد عاصياً لله تعالى. فإن علماء الإسلام في القديم لم يكن لهم حاجة في بحث مشكلة السيادة في الدولة ولكن بعد أن أثار فقهاء فرنسا مشكلة السيادة ذهب بعض علماء المسلمين وبعض علماء القانون الوضعي إلى إثارة بحث السيادة في الدولة الإسلامية ولكنهم لم يتفقوا على أساس معين لمشروعية السيادة في الدولة الإسلامية واستعاروا في بحثهم النظريات الغربية في أساس مشروعية السيادة ، وحاول كل منهم أن يجد أساس مشروعية السيادة في الدولة الإسلامية في نظرية من تلك النظريات . فمن قائل إن مصدر السيادة يرجع إلى النظريات الدينية ومن قائل بأن صاحب

١٨. أزمة الفكر السياسي، د. عبد الحميد متولي ص ٢٧٩.

١٩. منهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد ص ١٧.

السيادة هو الأمة [٢٠] .

هذا مثال بسيط من تأثر المسلمين اليوم بالثقافات الأجنبية ، ومن الأمور التي يلصقونها للإسلام جزافاً ، وهي ليست من الإسلام بل الإسلام بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليه السلام ، قولهم إن الإسلام ديموقراطي واشتراكي ، مع أن الإسلام يتناقض مع الديموقراطية بأنه يجعل الحاكم منفذاً للشرع مقيداً به لا أجيراً عند الأمة ومنفذاً لإرادتها ، بل راعيا لمصالحها حسب الشرع ، ويتناقض مع الإشتراكية لأن الملكية عنده محدودة بالكيف ولا يجوز أن تحدد بالكم . كما ويتناقض مع الشيوعية بأنه يجعل الإيمان بوجود الله أساس الحياة ، ويقول بالملكية الفردية ويعمل لصيانتها .

فجعل الإسلام ديموقراطيا أو اشتراكياً أو شيوعياً ، تأثر بالثقافة الغربية وليس انتفاعاً بها [٢١].

إن أصالة الثقافة الإسلامية ، من أصالة الإسلام الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

---

٢٠. من الذين نبهوا إلى أن صاحب السيادة هو الله:

أبو الأعلى المودودي، أنظر له :

أ. منهاج الإنقلاب الإسلامي ص ١٢ وما بعدها.

ب. تدوين الدستور الإسلامي ص ١٨ وما بعدها.

ومن الذين ذهبوا إلى أن صاحب السيادة هو الأمة:

أ. عبد الوهاب خلاف، في كتابه السياسة الشرعية ص ٥٨.

ب. محمد بخيت المطيعي، في كتابه حقيقة الإسلام وأصول الحكم ص ٢٤.

جـ. د. ضياء الدين الريس، في كتابه النظريات السياسية الإسلامية ص ١٧٥.

د. د. كامل ليلة، النظم السياسية (الدولة والحكومة) ص ٢٥١.

هـ. د. عبد الله مرسي، في كتابه (سيادة القانون)ص ٦٢.

و. محمد عبد الباقي سرور، دولة القرآن ص ٩.

٢١. الإسلام وثقافة الإنسان، سميح عاطف الزين ص ٣٧.

المراجع

١. زبن حزم ، أبو محمد علي ، (١٩٨٤) ، الإحكام في أصول الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة .

٢. أسد ، محمد ، (١٩٧٢) ، منهاج الإسلام في الحكم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٣. الزين ، سميح عاطف ، (١٩٧٧) ، الإسلام وثقافة الإنسان ، دار الفكر ، بيروت .

٤. الزين ، سميح عاطف ، (١٩٧٥) ، الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى ، دار الفكر ، بيروت .

٥. الجندي ، أنور ، (١٩٧٧) ، صفحات من أمجادنا ، دار الاعتصام ، القاهرة .

٦. السيد ، فرج ، (١٩٦٥) ، المختصر في نظام الإسلام ، كلية الشريعة ، القاهرة .

٧. عثمان ، د. عبد الكريم ، معالم الثقافة الإسلامية ، مؤسسة الأنوار ، الرياض ، ط٣ .

٨. قطب ، سيّد ، ١٩٦٢ ، خصائص التصور الإسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

٩. متولي ، د.عبد الحميد ، ١٩٧٢ ، أزمة الفكر السياسي ، مؤسسة المعارف ، الإسكندرية .

١٠. النبهان ، د. محمد فاروق ، (١٩٧٤) ، مبادئ الثقافة الإسلامية ، دار البحوث العلمية ، الكويت .